الفصلُ الثّالث
العواملُ التي كوّنت شخصية السّلطان عبد الحميد، ومنهجَ تفكيره

١ - أحوالُ بلاده:

• انحطاطُ الأحوال المالية، وكثرةُ الديون:

وجد السّلطان عبد الحميد عند توليه العرش أنّ العجز في الميزانية العثمانية للعام المالي ١٨٧٥م، قد بلغ ٥ مليون ليرة عثمانية، وقيمة فوائد ديون الدولة ١٤ مليونًا، أمّا ديون الدولة نفسها بلغت ٣٠٠ مليون ليرة. وبالتالي وجدت الدولة نفسها مجبرةً على الاقتراض من جديد لدفع ما عليها.

وأمام هذه الغائلة، اضطرّ السّلطان الجديد عبد الحميد أنْ يتخذ تدابيرَ مالية صارمة، بدأها بنفسه وبالقصر السلطاني، وساعده في تنفيذها تكوينُه الشخصي، المتّصف بالحزم وبُعد النظر والبُعد عن الإسراف[1].

«لقد تسلّم دولة مُفلسة، ولكنّه نجح في تخفيض ديونها بدرجةٍ واضحة، ووفّق في تقليل الإسراف الذي حدث».

---

(١) صايار، المرجع السابق ص ٢٣٩.

كان لا يعرف الإسراف، وكان ذلك فيه شعورًا وليس تصرّفًا فقط. وعمل كلّ ما في وسعه لإيقاف الإسراف في الدولة. وبدأ حملتَه ضدّ الإسراف في الدولة، في تقْتير حجم الإنفاق بكلّ أشكاله في القصر. مثالٌ على ذلك: أنّ العادة كانت قبل تولّيه أن يقوم المطبخ في القصر- ثلاث مرات في اليوم- بإرسال الطعام إلى كلّ منزل من منازل الحرس السلطاني وموظفي القصر ومستخدميه، وكلّ مَن يعمل في معيّة السّلطان. وكان كلّ هؤلاء يسكنون داخل سور القصر. فأمرَ السّلطان بإزالة هذه العادة، ومنَعَ خروج الطعام مجانًا من مطبخ القصر. وأمر بألّا يأكل السّلطان الطعام بمفرده، وإنّما في مائدة واحدة مع أفراد أسرته، ودونَ إسراف في أنواع وكمّيات الطعام.

ومع ذلك، حدث أن قال بعض المسئولين للسّلطان بضرورة رفع سعر رغيف الخبز؛ لأنّ الدولة لم تعد تستطيع دفع الفرق بين ثمنه الحقيقي وثمن بيعه، فرفض السّلطان هذا، وتبرع بدفع الفرق من خزينته الخاصّة[1].

وعجزت الدولة عن إيواء المهاجرين المسلمين ممّن طردهم الأوروبيون من أراضي الدولة في البلقان. فقام السّلطان ببناء مساكن ومساجد لهم مِن ماله الخاص، وأوجد لهم الأعمال، وأكرم وفادتهم، وقام بنفسه باختيار أماكنَ لاستقرار هجرتهم. وكانت سياسته تجاههم

(١) مفتي أوغلو ص ٢٠١ - ٢٠٣

أنْ يكونوا مفيدين مُستفيدين. وقيام مدينة عمان عاصمة الأردن اليوم إنّما كان نتيجة طلب السّلطان عبد الحميد الثاني إيواءَ المهاجرين الشراكسة من البغي الروسي من مناطقهم الأصلية إلى مكان مدينة عمان اليوم. وقد أفاد الشراكسة من هذا المكان؛ فاستقرّوا فيه وطوّروه وأفاد منهم المكان. وقد أوجد السّلطان المأوى، وسبلَ الإعاشة، وإنشاء قرى التهجير في كلّ أنحاء البلاد، من استانبول إلى سيواس إلى حلب، وكفل نفقات ووقود وأدوية هؤلاء الذين شرّدتهم حرب ٩٣ بين العثمانيّين والروس.

واتّخذ السّلطان عبد الحميد خطواتٍ رسميةً وصارمة لسداد الديون. منها أسهم رمضان؛ لأنها صدرت في شهر رمضان بقصدِ ضمان دفع الديون المتراكمة. وكانت نتيجة هذه التدابير مجتمعة أنْ هبطت ديون الدولة العثمانية- التي كانت عند تسلّم السّلطان عبد الحميد الحكم «٣٠٠» مليون ليرة- إلى ثلاثين مليون ليرة فقط، أي: إلى العشر.

والغريب أنّ الاتحاديين الذين أقصوه عن الحكم، وتولّوا هُم إدارة البلاد، ارتفع مقدار ديون الدولة في عهدهم القصير وهو ثمان سنوات، إلى مبلغ ٤٠٠ مليون ليرة[١].

(١) مذكرات السّلطان عبد الحميد، ١٩٨٥ ص ٣٣ و١٩٧٨، والاستشهاد بعد ذلك من الطبعة الأولى ١٩٧٨، ويشار إليها باسم «المذكرات».

• **وُعورة الأحوالِ السياسيه، ووخامة الأحوال العسكرية:**

كانت سنة تولي السّلطان عبد الحميد الحكم (١٨٧٦م)، نقطةَ تحوّل حقيقي في تاريخ العثمانيّين؛ أحداث غريبة، عزل السّلطان عبد العزيز، وموته في ظروف غامضة وبطريقة غريبة. أقصوه وحبسوه وقالوا انتحر. لكن التحقيقات أثبتتْ بعد ذلك أنّ العثمانيين الجدد قتلوه. وتولى السّلطان مراد الخامس العرش، ثمّ اضطر الثوار الذين أسقطوا عمّه عبد العزيز إلى استصدار فتوى بأنّ مرادًا مخبول، وبالتالي عُزل بعد ثلاثة أشهر من توليه الحكم. الولايات العثمانية في البلقان في اضطراب وتمرّد وتدخل خارجي. الحرب ضدّ روسيا تقترب، ولا وسيلة هناكً إلى منعها، وبخاصة أنّ الثوار الوزراء يتحمّسون لها. موقع الدولة العثمانية الاستراتيجي مفتوح للتدخلات الأجنبية، وليست هناك فكرة تجمع الشعوب العثمانية على أمرٍ واحد. خروج الدولة من عدة حروب. وقمع الدولة لعدة تمرّدات.

كلّ هذا استهلك المتبقي من طاقة الدولة، ماليًّا وعسكريًّا، وأحرج موقفها سياسيًّا.

تَصَوَّرَ السّلطان عبد الحميد الثاني أنّ المشروطية تعني الحكم النيابي، وهذا لا يمشي مع ظروف الدولة العثمانية، واقتنع بهذا التصور. لكنه وجد أنّ الثوار الذين عزلوا عمّه، ثمّ أخاه، يدفعون السّلطان دفعًا إلى

إعلان الحكم النيابي. فاضطرّ إلى إعلان المشروطية في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦، وافتتح أول مجلس نيابي عثماني. وهو مجلس «المبعوثان»، واضطر أو دُفع دفعًا لإعلان الحرب ضدّ روسيا. وهزيمه الدولة في هذه الحرب- رغم ما أبلاه الجيش من دفاع بطولي في قصبة بلاونة - وسقوط كثير من المدن الهامّة في أيدي الروس حتى وصلوا إلى استانبول.

وأمام كلّ هذه الأخطار المدنية والعسكرية، وجدَ السّلطان الشاب أنّ الثوار ومجلس المبعوثين، قد ورّطوا الدولة في هذه الكوارث التي كان من الممكن تجنّبها. لذلك أعلن السّلطان عبد الحميد الثاني بعد تولّيه بحوالي سنتين «إرادة سنية» و«قرارًا حكوميًّا» بتعطيل العمل بمجلس المبعوثين إلى أجلٍ غير مسمّى، وكان ذلك في ١٣ فبراير ١٨٧٨م، لكنه أبقى على الدستور.

ومِن ثمّ بدأ السّلطان عبد الحميد الثاني يمسك زمام الحكم والإدارة في البلاد بيديه، واستمر في حكمه الفردي ثلاثين عامًا ونصف العام.

٢ - رحلتُه إلى مصر وأوروبا:

عندما قام السّلطان عبد العزيز على رأس وفدٍ عثماني فيه الأمير عبد الحميد (السلطان فيما بعد) إلى مصر عام ١٨٦٣م، كانت هذه هي ثاني زيارة لسلاطين آل عثمان للديار المصرية، فقد سبقتها قبل ٣٤٥ سنة دخول سليم الأول مصر.

لفت نظر عبد الحميد أثناء وجوده في مصر «الزيف الكاذب للبريق الأوروبي» والأخذ هناك بالشكليّات الأوروبية، ممّا جعل مصر تستدين وتغرق في الديون، نتيجة انطلاق الوالي (الخديوي) إسماعيل باشا في إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعةً من أوروبا، في وقت كانت مصر والبلاد الإسلامية في حاجةٍ إلى الاقتصاد الشديد في الإنفاق.

ثمّ كانت رحلته إلى أوروبا، عندما أقامت فرنسا المعرض الدولي في باريس، ووجّه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، الدعوة إلى عدّة حكام منهم السّلطان عبد العزيز، وكان عبد الحميد في معيّته. واستمرت هذه الرحلة من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م. زار الوفد العثماني: فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والدولة النمساوية – المجرية.

وفي هذه الرحلة الأوروبية، تفتّح ذهنُ عبد الحميد إلى أمورٍ كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلّها بعد ذلك. وهذه الأمور هي:

١ـ الحياة الأوروبية بكلّ ما فيها من طرق معيشة غريبة، وأخلاقيات مختلفة، وشكليّات.

٢ ـ التطور الصناعي والعسكري، وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية، وفي القوات البحرية البريطانية.

٣ ـ ألاعيب السياسة العالمية.

٤ ـ تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون الثالث على عمّه السّلطان عبد العزيز، وضغط نابليون عليه ليلتزم بمساندة الوزير عالي باشا. رغم أنّ السّلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحدًا أنه تحت تأثير أي قوة غربية[1].

انطبع في ذهن عبد الحميد أثناءَ هذه الرحلة أنّ فرنسا دولة لَهْو، وإنكلترا دولة ثروةٍ وزراعة وصناعة. أمّا ألمانيا فهي دولة نظامٍ وعسكرية وإدارة. وكان إعجابه بألمانيا كثيرًا؛ لذلك عهدَ بتدريبِ الجيش العثماني- عندما أصبح سلطانًا- إلى ضبّاط ألمان. وأعجب عبدُ الحميد أثناء وجوده في ألمانيا ضيفًا مع الوفدِ العثماني، أنّ كلّ مَن قاموا بالخدمة في القصر الذي حلّ به ضيفًا؛لم يكن بينهم امرأةٌ واحدة.

وإعجابُه بالتقدم العلمي والتقني الأوروبي، دفعه أثناء سلطنته إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياه: تعليمية، وصناعية، ووسائل اتصالات، وعسكرية. والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراؤه غوّاصتين، وكان سلاح الغواصات جديدًا. وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص. وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل إلى البلاد أولَ سيارة وأولَ دراجة، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنه وقف بحزم ضدّ سريان الفكر الغربي في البلاد.

---

(١) المذكرات ص ٢٥.

أثّرت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا أيضًا في اتّباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا. ولم يُعرف عنْ عبد الحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقتُه، ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

ولفت انتباهَ عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ذلك الحوارُ الذكي الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدرُ الأعظم العثماني، والمعروف أنّ الدولة العثمانية كانت في تلك السنوات بالذات، أضعف دولة كبيرة، ومع ذلك:

سُئل فؤاد باشا أثناءَ هذه الرحلة: بكم تبيعون جزيرة كريت؟ فردّ الباشا قائلًا: «بالثمن الذي اشتريناها به». وكان يعني بذلك أنّ العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على كريت ٢٧ عامًا كلّها حروب.

وسئل فؤاد باشا أيضًا: «ما هي أقوى دولة في العالم الآن؟» فردّ قائلًا «أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية. ذلك لأنّكم تهدمونها من الخارج، ونحن نهدمها من الدّاخل. ولم يستطع كلانا هدمَها».

تعلّم عبد الحميد مِن هذا الدرس القدرةَ على إسكات القوى التي تودّ تحطيم الدولة العثمانية. وتعلّم ذكاء الحوار السياسي، وهو ما برع فيه بعد ذلك.

وكان عمْرُ عبد الحميد أثناءَ هذه الرحلة ٢٥ عامًا.

٣- استبدادُ الوزراء، واشتدادُ سياستهم الغريبيّة:

كانت جمعية العثمانيّين الجدد، وهي تضمّ النخبة المثقفة ومنها الوزراء، يبحثون عن أصولٍ للحكم لبلادهم في حضارة الغرب. بمعنى أنّهم كانوا يريدون دستورًا للبلاد على النمط الأوروبي، ومجلسًا للشعب مثل المجالس النيابيّة في الغرب.

واستطاع عددٌ من أعضاء هذه الجمعية الاشتراكَ في فعاليات إعداد أوّل دستور عثماني، وتحقيق ما تصوره من إصلاحات بفضل مدحت باشا[1].

وجدَ أعضاء هذه الجمعية الثورية أنفسَهم في أماكن النفوذ في الدولة، وأصبح الباب العالي (الحكومة العثمانية) تحتَ سيطرتهم، فطفقوا يتجبّرون ويتحكمون في البلاد، ويحتَمون من السّلطان بالدول الغربية بعد أن كانوا ينقدون تدخّلها في أمور دولتهم الداخلية، بل ويلجأون -إذا اقتضى الأمر- إلى السفارات الأجنبية مثْلما فعلَ كبيرهم مدحت باشا عندما لجأ- وهو والٍ على إزمير- إلى السفارة الفرنسية عندما خافَ من الاعتقال.

وبلغ مِن استبداد الوزراء بالحكم، أنْ كتب مدحت باشا- وهو في مقام الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد- إلى السّلطان عبد الحميد في

(١) شريف ماردين، تركيا الفتاة: الفكر السياسي، ص ٣١.

أول عهده بالعرش (١٨٧٧م): «لم يكنْ غرضُنا من هذا الدستور إلّا قطع دابر الاستبداد، وتعْيين ما لجلالتكم من الحقوق، وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريّتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد إلى مدراج الارتقاء، وإني أطيع إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة..»[١].

إنّ التأييد العام تمتّع به أعضاء جمعية العثمانيّين الجدد بين أوساط المثقفين، وإقبال الرأي العام عليهم، وشيوع حبّ الغرب في الصحافة والإعلام؛ أثّر في طريقة ومنهج السّلطان عبد الحميد. ويقول السّلطان عبد الحميد في هذا: «ولقد وجدت مدحت باشا ينصّب من نفسه آمرًا ووصيًّا عليّ. وكان في معاملته بعيدًا عن المشروطية (الديمقراطية) وأقرب إلى الاستبداد»[٢].

٤ – اغتيالُ عمّه السّلطان عبد العزيز:

عندما اختلف مدحت باشا وجمعية العثمانيّين الجدد مع السّلطان عبد العزيز، عزلوه ثمّ أذاعوا بيانًا، بأن السّلطان انتحر. لكنّ اللجنة الطبية التي شكّلها السّلطان عبد الحميد– بعد اعتلائه العرش للكشف عن

(١) يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق ١٤٠٥–١٩٨٥ ص ١٦.

(٢) المذكرات ص ٢٦.

هذه المسألة أكّدت أن الحادث لم يكن انتحارًا، بل كان قتلًا، وإلّا فكيف يمكن للمُنتحر أن يقطعَ شرايين ذراعيه الاثنين بنفسه، وقدّموا الدليل الطبي على عدم موت السّلطان عبد العزيز انتحارًا، بل اغتيالا[1].

٥ – تعرّضُه في بداية حكمِه لمحاولتين انقلابيّتين بدعم إنكلترا:

أ – مؤامرة علي سعاوي:

«علي سعاوي» أحدُ أعضاء جمعية العثمانيّين الجدد، وهو مِن النخبة المناوئة لحكم السّلطان عبد الحميد. وكان مناوئًا من قبْلُ لحكم السّلطان عبد العزيز. وفي عهد السّلطان الأخير كان «علي سعاوي» منفيًّا مِن البلاد. وعلى أثر اعتلاء السّلطان عبد الحميد، صدر قرارٌ بالعفو عن «علي سعاوي» فتركَ منفاهُ في أوروبا، وعاد إلى استانبول، وشغل بعضَ المناصب. وتقرّب إلى السّلطان فقرّبه، لكنْ نتيجةً لسلوك علي سعاوي فقَدَ اعتباره لدى السّلطان، وبالتالي أعفِيَ من أعماله الرسميّة. وبذلك عاد علي سعاوي مرة أخرى إلى مناوأة الحكم.

رتّب علي سعاوي هجومًا مسلّحًا على قصر جيراغان؛ حيث يقيم السّلطان المخلوع مراد الخامس، الذي أُعفي من الحكم نتيجة جنونه. وبعد نجاح هذا الهجوم– المُتصوَّر– يقوم علي سعاوي بإخراج السّلطان

(١) أوزطونه، تاريخ تركيا الكبير، جـ٧ ص ١١٨–١١٩

مراد من القصر، وينصّبه سلطانًا حاكمًا بديلًا عن السّلطان الشرعي عبد الحميد.

ولمّا كان علي سعاوي مؤيدًا لإنكلترا، ومؤيَّدًا منهم، فقد أدخل في حساباته اهتمام إنكلترا بهذه المؤامرة، وبخاصة أنّ الدوائر الماسونية في أوروبا، وفي داخل الدولة، كانت تهتمّ بأخبار السّلطان مراد- وكان عضوًا فعّالًا في الماسونية- أولًا بأوّل، واستفاد علي سعاوي من هذا الاهْتمام.

وفي ١٨ مايو عام ١٨٧٨م، نجح علي سعاوي بمجموعةٍ مسلّحة من المهاجرين، تقدّر بمائتي رجل، في الهجوم على القصر والوصول إلى جناح السّلطان مراد. لكنّ قوة حرس في مكانٍ مجاور للقصر استطاعت الوصولَ في الوقت المناسب، وتمكّنت من إحباطِ المؤامرة، وقتل علي سعاوي، وحوالي عشرين من مساعديه[1].

ب - مؤامرةُ جمعيّة كلانتي الماسونية:

بعد فشل المؤامرة الأولى، قامت جمعية «كلانتي سكاليري» الماسونية السريّة بمؤامرة شبيهة بالأولى ضدّ السّلطان عبد الحميد. تسمّى هذه الجمعية أحيانًا باسْم «جمعيى كلانتي وعزيز بك» الماسونية السريّة.

(١) أوزطونه، المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

كانت المؤامرة قد كمُلَ التخطيط لها في يوليو ١٨٧٨م. أي: بعد ما يقرب من شهرين، بعد فشل مؤامرة علي سعاوي.

والواقع أنّ الدوائر الماسونية العالمية، كانت حريصةً على تعقّب أخبار صحّة السّلطان المخلوع مراد. وكانت هذه الدوائر تخشى عليه من القتل، أو أن يصاب بضرر، وقد كتب رئيس الجمعية الماسونية في استانبول، خطابًا إلى التنظيمات الماسونية في إيطاليا؛ يؤكد فيه أنّه لاخطر على السّلطان المخلوع مراد من القتل.

وكلانتي هذا، هو اسْم الأستاذ الأعظم لمحفل برودوس الماسوني في استانبول. واختار كلانتي لمؤامرته توقيتًا، هو قيام السّلطان عبد الحميد بعزل صدره الأعظم أدهم باشا، وكان أدهم باشا من أهمّ الشخصيات التي يعتمدُ عليها الماسونيّون في أعمالهم.

كان هدف المؤامرة، إخراج السّلطان مراد من القصر، وإخفاءَه مؤقتًا في قصر عزيز بك، العضو بنفس الجماعة إلى أن يهيئ أنصار الجمعية لإعلان مراد سلطانًا مكانَ السّلطان الشرعي عبد الحميد.

نشطت جمعية «كلانتي» في الدّعاية ضدّ السّلطان عبد الحميد، قبل تنفيذها لعمليّتها، وتمثّلت هذه الدعاية- فيما تمثلت- في نشر الملصقات في الشوارع.

وأشركت الجمعيةُ في عمليتها شخصيات نسائية من داخل قصر جيراغان. كما نظّمت هذه الجمعية أيضًا مخطّطًا لاغتيال السّلطان عبد الحميد، عدلت عنه فيما بعد.

وقبيل شروع جمعية كلانتي الماسونية السريّة في تنفيذ خطتها، قام أحدُ أعضائها، ويدعى «حسني» بإبلاغ السّلطات المسئولة، فقبض على أعضاء الجمعية وهُم في اجتماع.

وكانت إنكلترا تؤيد المؤامرتين، وتقف خلفهما[١].

***

٦ – تعرّضُه لمحاولة اغتيال الأرمن له بقنبلةٍ موقوتة:

في الخامس من يوليو عام ١٩٠٥، قام المتمرّدون الأرمن بتنظيم مؤامرة لاغتيال السّلطان عبد الحميد. وكانت وسيلتهم في هذا قنبلةً موقوتة تنفجر عقب خروجه من المسجد من صلاة الجمعة. وبالفعل، انفجرت القنبلة، لكنها انفجرت قبلَ وصول السّلطان إلى مكانها. ولم يصب السّلطان بأذى، إلّا أن الحادث أودى بأرواح ٢٦ شخصًا، وجرح ٥٨ [٢].

(١) قارال، المرجع السابق ٥٠١ – ٥٠٤

(٢) حكمت طانيو، اليهود والأتراك عبر التاريخ، استانبول ١٩٧٧، الجزء الأول، صفحة ٤٧٢.